المغرب
بيت الحكمة
العدد رقم 4
1 يناير 1987

الأنثروبولوجيا البنائية

جوليا كريستيڤا

بعد أن أخضع الشكلانيون الروس الأدب لتحليل شبه بنائي، مستلهمين تطوّر اللسانيات في منتصف قرننا هذا، أصبحت **الأنثروبولوجيا** الميدان الرئيسي الذي طُبِّق فيه منهج قريب من منهج اللسانيات. ويمكننا القول، بالتالي، بأن الأنثروبولوجيا البنائية ـ ودون أن تقدِّم نفسها، صراحة، باعتبارها سيمياء (Sémiologie)، ودون أن تنكب على التفكير في طبيعة العلامة وعلى استكشافها بالضبط ـ هي سيمياء، مادامت تعتبر الظواهر الأنثروبولوجية بمثابة لغات وتطبّق عليها إجراءات الوصف الخاصة باللسانيات.

أكيد أن الأنثروبولوجيين، منذ موس (Mauss)، كانوا يهتمون بالمناهج اللسانية قصد أن يستعيروا منها خبراً، اشتقاقياً على الخصوص، يوضح الطقوس والأساطير؛ إلا أن الفونولوجيا [كما هي عند] **تروبتسكوي** (Troubet skoï) هي التي وَجَدت نفسها تمثل المجدِّدة القوية لهذا التعامل، مثلها في ذلك مثل تصوّر اللسان باعتباره نسقاً للتواصل.

وقد كتب **ليڤي ستروس**، مؤسس الأنثروبولوجيا البنائية القائمة على المناهجية الفونولوجية، سنة 1945، قائلاً: **«لا يمكن للفونولوجيا إلا أن تلعب، تجاه العلوم الاجتماعية، نفس الدور المجدِّد الذي لعبته الفيزياء النووية، مثلاً، بالنسبة لمجموع العلوم الدقيقة»**. وفعلاً، فإن الاجراءات الفونولوجية قد طبقت على أنساق القرابة [المنتمية] للمجتمعات المسماة بدائية.

كانت التفاصيل الاصطلاحية وقواعد الزواج، كل من جهته، قبل هذا الالتقاء الذي تم بين الفونولوجيا والأنثروبولوجيا، تُعزى الى هذا العرف أو ذاك، دون أن نتبين فيها أي مظهر نسقي: والحال أن أنساق القرابة تشهد ـ مع كونها نتيجة فعل عوامل تاريخية متنافرة عديدة ـ على انتظام أكيد إذا نحن نظرنا

إليها في مجموعها التزامني. فهناك، مثلاً، أنساق خطية أبوية أو خطية أموية يتم فيها تبادل النساء حسب نظام معين، حيث يُسمح بالزواج بهذا القريب أو ذلك العضو من نفس القبيلة أو من قبيلة قريبة أو بعيدة، ويمتنع مع نوع آخر من الأقارب أو مع عضو من قبيلة من نوع آخر. وفي مواجهة هذا الانتظام يطرح ليفي ستروس المماثلة بين أنساق القرابة وأنساق اللغة: «يجد عالم الاجتماع نفسه عند دراسة مشاكل القرابة (وعند دراسة مشاكل أخرى، أيضاً، دون شك) في وضعية مماثلة من الناحية الصورية لوضعية العالم اللغوي الفونولوجي: إن مصطلحات القرابة، مثلها مثل الفونيمات، هي عناصر دَلاَلَيةٌ؛ وهي، مثلها، لا تكتسب هذه الدلالة إلا بشرط هو أن تندمج في نسق؛ ويقوم الفكر، على مستوى الفكر اللاواعي، ببلورة «أنساق القرابة» مثلها في ذلك مثل «الأنساق الفونولوجية»؛ وأخيراً فإن تواتر أشكال القرابة وقواعد الزواج والمواقف المقرّرة بشكل متماثل بين بعض الأنواع من الأقارب، الخ، في مناطق متباعدة من العالم وفي مجتمعات مختلفة عن بعضها البعض اختلافاً عميقاً، يجعلنا نعتقد بأن الظواهر القابلة للملاحظة، سواء في هذه الحالة أو تلك، ناجمة عن لعبة القوانين العامة، لكن الخفية. وبالتالي يمكن للمشكلة أن تصاغ بالكيفية التالية: إن ظواهر القرابة، في نظام آخر للواقع، هي ظواهر من نفس نوع الظواهر اللسانية. فهل يستطيع عالم الاجتماع - وهو يستعمل منهجاً مماثلاً فيما يخص الشكل (إن لم يكن فيما يخص المحتوى) للمنهج الذي أدخلته الفونولوجيا - أن يجعل عمله يحقق تقدماً مماثلاً للتقدم الذي تحقق في العلوم اللسانية؟».

من البديهي أنه ينبغي للأنثروبولوجي البنائي، انطلاقاً من هذا المبدأ الأساسي، أن يحدّد عناصر نسق قرابة ما، كما يحدّد اللساني الوحدات الأساسية لنسق لساني ما، و[يحدّد] في نفس الوقت العلاقات الخاصة بهذه العناصر داخل البنية. لقد أثبتت الملاحظات الإثنو-منطقية أن الخؤولة (إيلاء الأهمية الأساسية للخال) هي أبسط بنية قرابة يمكن تصوّرها. فهي تقوم على أربعة أطراف: الأخ والأخت والأب والابن، المتحدين فيما بينهم (كما في الفونولوجيا) على هيئة زوجين من التعارضات الترابطية (أخ/أخت، زوج/زوجة، أب/إبن، خال/ابن أخت)، بحيث إنه توجد دائماً، داخل كل

جيل من الجيلين المعنيين، علاقة إيجابية وعلاقة سلبية. وإن محور أخوة الزوجة حتمي ومركزي إلى حدّ أن بنية القرابة تنبني حوله.

ويبدي أن إقامة مثل هذه القواعد التي تذكّر بالقواعد الفونولوجية ليست ممكنة إلا إذا نظرنا الى القرابة باعتبارها نسقاً للتواصل، وإذا شبّهناها، من ثم، باللغة. وفعلاً، فإنها نسق بالنسبة لليفي ستروس الذي يسجل أن «رسالة» نسق من القرابة هي «نساء الزمرة اللواتي يجري تداولهن بين العشائر أو السلالات أو العائلات (وليس عن طريق كلمات الزمرة المتداولة بين الأفراد، مثلما هو الحال في اللغة ذاتها)». وانطلاقاً من هذا التصوّر لقواعد القرابة باعتبارها قواعد للتواصل الاجتماعي، يعارض ليفي ستروس ما اعتاد عليه الأنثروبولوجيون من ترتيب هذه القواعد الى أصناف متنافرة تطلق عليها أسماء مختلفة: حظر المحارم، أنواع تفاضلية من الزواج، الخ؛ ويرى أنها «تمثل كلها طرقاً لضمان تداول النساء ضمن الزمرة الاجتماعية، أي أنها تضمن تعويض نسق من علاقات القرابة الدموية، ذي الأصل البيولوجي، بنسق سوسيولوجي من التحالف. وبمجرد صياغة فرضية العمل هذه لا يبقى علينا سوى الشروع في دراسة كل أنواع التبادل التي يمكن تصوّرها بين ن من الشركاء دراسة رياضية لنستنبط منها قواعد الزواج السارية في المجتمعات القائمة. وقد نكتشف، في نفس الوقت، قواعد أخرى تطابق مجتمعات ممكنة. وسنفهم أخيرا وظيفتها ونمط عمليتها والعلاقة بين أشكال مختلفة».

وليس مطروحاً علينا هنا تحليل مجمل الدقة التي يقيم ليفي ستروس عن طريقها أنساق القرابة خلال بحثه الذي يعتبر كتابه «البنيات الأولية للقرابة» (1949) حصيلته العظمى. وإنما نحن نريد فقط أن نسجّل كيف صارت إشكالية اللغة، بل وكيف أصبح علم خاص باللسان هو الفونولوجيا، رافعةً لعلم جديد في ميدان آخر، [هو ميدان] الأنثروبولوجيا البنائية، ممكنة إياه، على هذا النحو، من اكتشاف القوانين الأساسية التي يعتمد عليها التواصل، أي المجموعة البشرية.

هل يعني هذا أن نظام اللغة مماثل تماماً لنظام الثقافة؟ إذا لم تكن هناك أية علاقة بين الاثنين فإن النشاط البشري سيكون [عبارة عن] فوضى غير

متناسبة، دون أن تكون هناك أية علاقة بين تمظهراتها المختلفة . إلا أننا نلاحظ غير هذا . لكن إذا كان تقاطب النظامين شاملاً ومطلقاً فإنه سيفرض نفسه دون إثارة مشاكل . وبعد أن سجل ليفي ستروس هذه الملاحظة [نجده] يختار موقفاً وسطاً سوف لن نكون مبالغين إذا نحن ذكرنا به أولئك الذين يعملون على بناء علم جديد، هو السيمياء، يُفهم بوصفه علماً لقوانين الاشتغال الرمزي : «من المحتمل أن تكون بعض الترابطات قابلة للاكتشاف بين بعض الوجوه وعلى بعض المستويات، والمقصود، بالنسبة لنا، هو معرفة ما هي هذه الوجوه وما هي هذه المستويات . وفي إمكان الأنثروبولوجيين واللسانيين أن يتعاونوا على هذه المهمة . لكن المستفيد الرئيسي من اكتشافاتنا المحتملة لن يكون الأنثروبولوجيا ولا اللسانيات كما نتصوّرهما حالياً، فالذي سيستفيد من هذه الاكتشافات هو علمٌ قديم جداً وجديد جداً في آن واحد، إنه أنثروبولوجيا مفهومة في أوسع معانيها، أي معرفة بالانسان تجمع مختلف المناهج ومختلف الفروع المعرفية، ستكشف لنا، في يوم ما، عن التوابض السرية التي تحرّك هذا الضيف، الحاضر دون أن يكون مدعواً لـ[حضور] نقاشاتنا : [ألا وهو] العقل البشري» .

نقل النص عن الفرنسية : محمد بولعيش

● العنوان الأصلي للنص : «L'ANTHROPOLOGIE STRUCTURALE»

عن كتاب : «اللغة ، ذلك المجهول» (Le language, cet inconnu)

منشورات سوي (Seuil) باريس، 1981 ، ص ص : 296 ـ 299 .